اخبرني ابو جورج قصة الاسماء . وابو جورج هو صديقي منذ ان كنت اسير وحيدا بين الاضواء ابحث عن معادلات ابي في الجبل الصغير . يلتقيني وحيدا ، اجلس على حافة هضبة تطل على خط القطار البطيء الذي بقي وحيدا من ذاكرتي ، ويخبرني ذكرياته عن الفرنسيين والحرب العالمية .

يروي ان السيوفي ، كانت ارضا واسعة يملكها رجل اسمه يوسف الصغير . من اجل ذلك سميت الاشرفية جبل الصغير . ثم اشتراها الاخوان الياس ونقولا السيوفي بأرخص الاسعار . وبنوا فيها بعد الحرب العالمية الاولى معملا للموبليا . فاصبحت المنطقة تسمى باسميهما .

المصنع ، وهو في الواقع مشغل كبير ، لا يشذ عن اولوية الصناعات الخفيفة في بلادنا ، كان حدثا . يعمل فيه حوالي خمسين عاملا . بنوا الاكواخ قربه ، وفتح الى جانبه مقهى صغير يقدم القهوة والعرق . كان المصنع مشروعا جديدا ، وكان الناس يعتادون لاول مرة على نمط جديد من الحياة . آلات حديثة . مفروشات على النمط الاوروبي لا يعلمون اين ستذهب ، ولا كيف ستباع . يقبضون في نهاية الشهر مرتبات او ما يشبهها ، يعطون قسما منها لنسائهم ، ويشربون العرق بما تبقى .

عندما بدأت المنطقة تعتاد على النمط الجديد من العلاقات والعمل ، دخلها نمط جديد من السرقة . فبدل النمط القديم الذي كان يمارسه رجل يدعى ندره ، يسكن في الطرف الشرقي من المنطقة ويمارس فرض الخوة على طريقة الشهامة العربية القديمة . دخلت السرقة المنظمة الى المنطقة . السرقة التي تقوم بها عصابات تخطط لما تريده ، تسرق دون رحمة ولا شهامة ولا اعتبارات مبدئية . أهم حدث كرس النمط الجديد من السرقة ، كان سرقة معمل السيوفي نفسه . ففي آخر الشهر ، يذهب المحاسب الى بيروت ، ليجلب مرتبات العمال الى المعمل حيث يجري توزيعها . كمن له اللصوص عند أحد المفترقات ، سرقوا ماله وتركوه يصرخ في الطريق . تنبه العمال على صوت المحاسب ، تجمعوا حول صراخه . ركض الرجال والنساء والاطفال ولحقوا بالسارقين . السارقون يركضون ، والناس تركض خلفهم من المفارق والازقة الترابية . وقبل ان يصل الناس الى اللصوص ، توقف اللصوص عن الركض ، رموا الدراهم في الطريق ، وتابعوا ركضهم . عندها انحنت الاجسام على الدراهم وبدأت الايدي تتخاطفها . ونسي الناس اللصوص وتركوهم يهربون ، وبدأوا يتناوبون بغير انتظام على التقاط الدراهم من الارض .

هذا ليس نمطا شهما من اللصوصية يقول ابو جورج . لماذا ؟ لان الناس بأسرها نسيت الشرف وتبعت الدراهم . تساهلوا مع اللصوص والتقطوا دراهم المصنع . هنا بدأ الانحدار . ويروى ، تابع ابو جورج ، ان المعمل بدأ عملية افلاسه من هذه اللحظة . فمات الياس السيوفي من الحزن وباع شقيقه نقولا الارض الى الناس . فقسمت الى ملكيات صغيرة .

لكن ابو جورج ، يقول ان الافلاس ، ربما كان له سبب آخر . فهناك بعض الناس الذين قابلوا نقولا السيوفي ، الذي كان يعمل مراقبا في وزارة المالية ، بعد افلاسه ، يروون ان السبب يعود الى السكر ولعب القمار ومعاشرة الاجانب . الله اعلم ، يقول ابو جورج . لكن منذ بدأ هذا النوع الجديد من السرقة ، بدأت عملية انحدار الناس . واصبحنا نتعامل مع اشياء لم نكن نعرفها في زمننا .

★ ★ ★